من مذكرات بلنت

صفحات مجهولة من حياة الامام محمد عبده

« مقتطفات من يوميات نشرها في انجلترا أخيراً ورثة سمر ويلفريد بلنت ، صديق مصر وحامي زعماء الثورة العرابية ، عن حوادث جرت في مصر والشرق العربي بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩١٤ » .

« وقد خص صديقه الحميم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية بالشيء الكثير من هذه المذكرات ، ودون فيها ما كان يدور بينهما من الأحاديث والمناقشات حول السياسة والعلم والدين »

« وهذه المذكرات تلقي الضوء ساطعاً على جانب من أفكار الشيخ محمد عبده وحياته الخاصة وعلاقته بالخديو وصداقته للفيلسوف هربرت سبنسر » .

مارس سنة ١٨٩١ :

حضر عندي صباحاً الأستاذ المفتي الشيخ محمد عبده ، وجلس معي ساعتين تقريباً ، تحدثنا فيهما شتى الأحاديث . وكان قد بعث إليّ بالنسخة التي أهديت إليه من كتاب بتلر : « فتح العرب لمصر » فشرحت له محتويات الكتاب لأنه لا يعرف اللغة الإنجليزية . ثم تناقشنا في المسألة الخاصة بنظرية المؤلف من أن المقوقس هو «سيرس» بطريق الاسكندرية . فذكر الشيخ عبده أن هذه النظرية خطأ . وعنده أن (المقوقس) قبطي ، وأنه حاكم منفيس ، وأن جماعة القبط في ذلك الوقت رحبوا بالفاتحين العرب ليخلصوهم من ظلم الرومان . وإلا فكيف أتيح للقبط أن ينالوا من عمرو بن العاص ما نالوه من امتيازات وعهود طيبة وحكم ذاتي تمتعوا به عصوراً متتالية ؟ ورأيه أن الحروب الصليبية ، وبالأخص هجوم الصليبيين على مصر هو الذي جعل القبط موضع الاضطهاد بسبب أنهم أعلنوا هواهم في جانب الصليبيين .

ودار الحديث على ما يجري الآن من الأمور السياسية في الآستانة ، فذكر الشيخ عبده أن الخديو عباس حلمي على علاقات سيئة مع السلطان ، وأنه قوبل في الآستانة هذا الصيف مقابلة فاترة ، وأن السلطان عبد الحميد امتنع أولاً عن مقابلته إلى أن أخذوا عليه تعهداً بألا يفاتحه في مشكلة جزيرة طشيوز . والمسألة هي أن الجزيرة ملك للخديو بالميراث ، ولكنها من أملاك الدولة العلية . وأن الخديو لما فرض على سكانها الضرائب بعثوا بشكايتهم إلى الحضرة السلطانية ، فأرسلت الحضرة الجنود ليقيموا فيها استناداً إلى تلك الشكايات . أما الخديو فهو يريد أن تخلي الجزيرة من الحامية العسكرية ، ولكن رجال البابين لم يصغوا إلى نظريته

وذكر أيضاً أن الخديو الآن تحت تأثير سيدة مجرية هي حظيته . وقد كانت معه في حادث العربة التي وقعت لهما أخيراً وهما عائدان من « الدار البيضاء » في طريق السويس إذ نشبت عجلات العربة في الرمال . وكان جزاء الخفراء الذين توانوا عن تقديم المساعدة المحاكمة والحبس مع الشغل مدة أسبوع . وقد رفع ذلك الحادث إلى دار الوكالة البريطانية ، وقامت بسببه مشاحنات حادة بين العميد وبين الخديو .

ثم تكلمنا — والحديث ذو شجون — عن مدحت باشا ، وفترة حكم السلطان عبد العزيز . ومن رأي الشيخ عبده أن وفاة السلطان عبد العزيز لم تخرج عن كونها حادث انتحار ، وهو ما أخبرني به الدكتور ديكونس في غضون عام ١٨٨٤ .

أما مدحت باشا فأسر إليّ كيفية معاملته في « الطائف » ؛ وأنهم يحرمونه من الغذاء الكافي ، ويقدمون إليه الخبز الجاف الخشن حتى كسرت أسنانه ، ولا يسمح له بقضاء حاجته إلا في غرفته إلى أن مات من سوء المعاملة . ثم قطعت رأسه وأرسلت إلى الآستانة .

ونعت الشيخ عبده السلطان عبد الحميد بأنه (أكبر مجرم سفاك في هذا العصر) .

وإنها لكلمة قاسية يذكرها عالم ديني كبير عن خليفته .

مارس ١٨٩١

رفعت تقريراً إلى اللورد كرومر عن الإدارة المصرية وسوء حال الدولاب الحكومي ، وشفعته باقتراح يتضمن تأليف وزارة من

المصريين ، هذه أسماؤهم بعد استشارة الشيخ عبده والويلفنى :

حسن باشا الشريعى ، بليغ بك ، أمين بك فكرى ، سعد أفندى زغلول ، أحمد أفندى حمود ، إبراهيم أفندى الوكيل ، محمود بك شكرى ، أحمد بك حشمت ، يوسف بك شوقى ، الشيخ محمد عبده .

فبراير ١٨٩٣

إن الشيخ عبده فى جانب رياض باشا رئيس الحكومة . وفى اعتقاده أن رياض باشا برغم كونه مستبداً رجل شريف ، وأنه أفضل من تجران وبطرس وأرتين ، لأن هؤلاء كلهم مسيحيون لا يريدون خيراً بنشر روح التعليم الإسلامى . ومدح الشيخ عبده فى أخلاق بعض الموظفين الإنجليز ، ولكنه عاد فذم الطبقة الجديدة منهم ، واستحسن تقربى من الخديو حتى أستطيع التأثير عليه . فيتعين رياض وبطبقة من الشبان المسلمين المتعلمين ، ويقصى عنه الأرمن والمسيحيين . وذكر الشيخ عبده أخيراً : نحن لا يهمنا أن يبقى الإنجليز سنة أو اثنتين أو خمسة ما داموا سيشركوننا فى الأمر ؛ إلى أن يقوى حزب الفلاحين ؛ ولكن إذا كانت هناك فكرة مبيتة بقهر مصر ، فإننا نفضل الاستبداد التركى الضعيف على ذلك الخسران المبين . فإن قهم بالجلاء غداً فحق أننا جميعاً نفرح ونغتبط .

والواقع أن الشيخ عبده الآن أكثر المصريين ميلاً إلى الإنجليز .

ديسمبر ١٨٩٣

تغدى اليوم معنا الشيخ عبده . وذكر ضمن حديثه أن الشيخ حسونة النواوى هو الوحيد بين هيئة العلماء الذى يصلح لأن يكون شيخاً للأزهر على أساس حر شريف .

نوفمبر ١٨٩٤

تغدى معنا وحدثنا عن مقابلته الأخيرة للخديو واستياته إياه نحو الأزهر . ثم عرض خلال الحديث إلى حادث قتل إسماعيل باشا الفقش وخنقه فى إحدى السفن النهرية أمام جسر قصر النيل . وكذلك جرنا الحديث إلى ما وقع لعلى باشا شريف وابتياعه بعض الجوارى والعبيد . وتناولنا نوبار باشا ، وكيف يستعين بمركزه فى الوزارة ، ونفوذه ليشتغل بالأعمال المالية ويستفيد منها .

نوفمبر ١٨٩٥

قابلت كرومر اليوم وتحدثنا فى شؤون مختلفة ، فأخبرنى الشيخ عبده أن قد يصدر الأمر بتعيينه مديراً للأوقاف ، فاستحسنت ذلك التعيين بكل جوارحى .

مارس ١٨٩٨

زارنى الشيخ عبده وأقام عندى فترة طويلة ، ودعى فيها بمناسبة أوبتى إلى انجلترا . والواقع أننى أغادر هذا البلد الطيب وأنا مريض ، وقد ملت الحياة ، وكنت على وشك أن أعتنق الإسلام ، ولكننى أنظر إلى الإسلام بنفس العين التى أنظر بها إلى المسيحية .

٥ ديسمبر ١٨٩٩

ليس بين جميع الشرقيين ، بل بين جميع الرجال صديق أعظم لى من الشيخ عبده : وها هو يعود بعد أن سجن لإرادته الحرة وأفكاره الجريئة ؛ وبعد أن نفى عام ١٨٨٢ فيعترف لى بقضيته . والحق أنه أقدر رجال مصر وأشرفهم وأنبلهم ، وهو يشغل الآن منصب مفتى الديار المصرية . وقد أهديت إليه منذ سنوات قطعة من أرضى فى عين شمس تبلغ مساحتها فداناً ، فبنى عليه داراً قروية ، وصار أقرب جار لنا .

يناير ١٩٠٠

تحادثنا ملياً عما فعله كتشنر برأس المهدى فى السودان ، واتفقنا على أن الله هو وحده المنتقم الجبار من هذه الأفعال الإجرامية التى سوف تصل بالإمبراطورية إلى الانهيار الذى وصلت إليه غيرها من الأمم

٢٨ يناير ١٩٠٠

كان حديثنا الليلة يتناول الإنسانية ومعاملة القوى للضعيف . فألفيته من المتشائمين مثلي . فقال : إنه كان يتلو التوراة من أيام فرأى أن الفظائع والوحشية التي جاءت على يد المسيحية جاءتها من صلتها باليهودية . وذكر أحاديث نبوية كثيرة عن معاملة الحيوان الأعجم بالرأفة والمحبة ، وأن قتل المجاورات هو ضد عقيدة المسلم وشعوره ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للمسيحية . وهو لا يؤمل خيراً في مستقبل البشرية . وإني لأخشى أن يكون ضعيف الإيمان بأثر الإسلام برغم أنه الفتى الأكبر، مثل ما عندي من ضعف الإيمان بأثر الكنيسة الكاثوليكية .

أكتوبر ١٩٠١

أثناء حديث الصباح جاء ذكر (عرابي) بمناسبة رجوعه من النفي إلى وطنه . فأخذ عليه الشيخ عبده الحديث الذي صرح به لمكاتبي الصحف قبل أن يقف على حقائق الأمور ، وبالأخص تصريحه أن كل شيء عمله الإنجليز في مصر هو طيب .

٢٤ أكتوبر ١٩٠١

كانت اليوم أول مقابلة جرت بين عرابي وعلي فهمي وبين الشيخ عبده فتعانقوا عناقاً حاراً وتناول حديثهم ذكريات العصر الماضي ومواقف رجال العصر .

[بقية في العدد القادم] محمد أمين حسونة

هذه المصانع المصرية العظيمة!